مسرحية بقلم فرناندو أرابال

جرينيكا

ترجمة وحيد النقاش

كانت مسرحية جرينيكا هي اخر عمل قام الاديب الشاب وحيد النقاش بترجمته قبل وفاته في باريس في ٣١ اكتوبر ١٩٧١ ، حيث كان يدرس لنيل الدكتوراه عن « المسرح والتطور الاجتماعي في مصر » .

(خلال عشر ثوان يسمع صوت الاحذية العسكرية لقوات سائرة، ثم يتلوها ضجيج القصف وازيز الطائرات وانفجار القنابل . داخل احد البيوت التي تهدّمت ترى جدرانا قد تحولت الى حطام وشظايا صغيرة متناثرة واحجارا من كل مكان . وسط هذا كله يقف فانشو قريبا من احدى الموائد وقد بدا عليه اليأس وقلة الحيلة) .

فانشو : يا كنزي ، يا ارنبتي الصغيرة .

(يحاول ان يزيل كومة الحطام على اليمين ولكن دون جدوى)

يا ارنبتي الصغيرة ، أين انت ؟

(يواصل الحفر) .

صوت ليرا : يا حبيبي .

فانشو : هل انتهيت من « قضاء حاجتك »؟

صوت ليرا : لم أعد أستطيع الخروج . أنا مزنوقة .انهاركل شيء.

(يرتقي فانشو المائدة بصعوبة شديدة لكي يرى ليرا . يشب على اطراف اصابعه . يبدو عليه الارتياح حين يتوصل في النهاية الى رؤيتها) .

فانشو : انظري اليّ .

(يشب اكثر على اطراف اصابعه)

صوت ليرا : انت هنا ؟

فانشو : تقدمي برفق يا كنزي .

(ضوضاء انهيار) .

صوت ليرا : آي . آي . (تتوجع مثل الاطفال)

فانشو : هل أصبت بسوء ؟

(تمر فترة صمت . فانشو يعتريه القلق) .

صوت ليرا : (في حالة توجع) نعم . كل الحجارة سقطت عليّ.

فانشو : حاولي النهوض .

صوت ليرا : لا داعي لذلك ، فلن اتمكن من الخروج .

ـ فانشو : ابذلي جهدا .

صوت ليرا : قل لي انك لا زلت تحبني .

فانشو : طبعا . وانت تعرفين ذلك تماما . (فترة صمت) وسوف ترين ذلك بنفسك . حين تخرجين سنفعل معا حماقات غرامية .كثيرة!

صوت ليرا : هوذا (يبدو عليها الرضى) انت لن تتغير ابدا .

(يسمع ازيز طائرات . تبدأ القنابل في السقوط من جديد خلال عدة ثوان . يتوقف القصف) .

فانشو : هل سقطت عليك الاحجار ثانية ؟

صوت ليرا :لا . وعليك انت ، يا كنزي ؟

فانشو : كلا ، ابذلى جهدا للخروج من هنا .

صوت ليرا : لا استطيع . (تمر فترة) . انظر اذا ما كانوا قد اصابوا الشجرة .

(ينزل فانشو بصعوبة من فوق المائدة . يتجه ناحية اليسار . ينبغي عليه ان يزيح كومة من الحطام . يظهر جانب من النافذة ينظر فانشو عبره فيبدو عليه الانشراح . يعود ادراجه ويرتقي المائدة من جديد) .

فانشو : كلا ، لم يصيبوها . انها لا تزال واقفة دائما .

(تمر فترة)

صوت ليرا : (نائحة) وماذا تراني سأفعل ؟

فانشو : حاولي ان تنهضي برفق ، بكل رفق .

صوت ليرا : لا استطيع .

فانشو : ابذلي بعض الجهد .

صوت ليرا : سأحاول .

فانشو : (يتكلم ببطء) افعلي ذلك برفق ، بكل رفق .

(يسمع سقوط بعض الحطام . تصدر عن ليرا انّات متوجعة)

فانشو : هل اصبت بسوء ؟

(صمت)

فانشو : ماذا حصل لك ؟ . قولي لي شيئا .هل اصبت بسوء؟

(انات متوجعة من ليرا)

فانشو : هل اصبت حقا بسوء ؟

صوت ليرا : (بحزن) نعم . (تنوح كالاطفال) سقطت احجار على ذراعي : الدم ينزف مني.

فانشو : الدم ينزف منك ؟

صوت ليرا : نعم

فانشو : بكثرة ؟

صوت ليرا : نعم ، بكثرة .

فانشو : أهو جرح ام مجردخدش ؟

صوت ليرا : خدش ، ولكنه مليء بالدم .

فانشو : سأبحث لك عن قطن .

(فانشو يحفر بين الانقاض . يزيح الركام ولكن الانقاض تنهال عليه اكثر فاكثر . يتوقف عن محاولاته ثم يعود فيرتقي المائدة من جديد) الدولاب مدفون تحت الركام .

(ليرا تعول مثل الاطفال)

في جيرنيكا تنهض صامدة شجرة الحرية وقد نجت من المذبحة التي تعرضت لها المدينة .

فانشو : كفي عن البكاء . ضعي قليلا من اللعاب على ذراعـــك والغي حوله منديلـك .

(ليرا تئن) . .

من ناحية اليمين يدخل الصحفي والكاتب . الصحفي يحمل دفترا يدون فيه ملاحظاته . يدور الكاتب حول فانشو بفضول ويتفحصـــه بانتباه . يتوقف بشكل مفاجيء وسط المسرح للحظة)

الكاتب : (الى الصحفي) أضف انني أعد رواية وربما فيلما ايضا عـن الحرب الاهليـة الاسبانية .

(الكاتب والصحفي يتجهان نحو اليسار)

الكاتب : (بتأكيد) هذا الشعب البطولي المليء بالمفارقات والـذي تنعكس فيه روح قصائد لوركـا ولوحات جويا وافلام بونويل ، يبرهـن لنـا مـن تلك الحرب المريرة على بسالته وقدرته على المعاناة و ..

(يخرج الكاتب والصحفي مـن جهة اليسار . صوت الكاتـب يتلاشـى بعيـدا)

فانشو : تشعرين بتحسن ؟

صوت ليرا : قليلا . (تمر فترة .ثم بصوت منتحب) ولكنه ليس تحسنا كبيـرا .

فانشو : اتحبين ان اقص عليك حكايـة لطيفة حتى تنسي شعورك بالالـم ؟

صوت ليرا : انت لا تعرف كيف تروي الحكايات اللطيفة .

فانشو : تريدين ان اقص عليك حكاية المرأة التي كانت في دورة الميـاه وظلت مدفونـة بين الانقاض ؟ (تمر فترة) الا تعجبك هـــذه الحكايـة ؟

صوت ليرا : أشعـر بألم فظيـع .

فانشو : ستريـن ، سيذهب عنك الالـم . سأفعل مثل البهلوان حتى اجعلك تضحكيـن .

(فانشو يرقص بغير حذق ويرسم على وجهه شتى التعبيرات ثـم ينفجـر فـي الضحك) .

فانشو : هل أعجبك هذا ؟

صوت ليرا : أنا لا أستطيع رؤيتك .

(أزيز طائرات . اصوات قصف . في هذه الاثناء تعبر المسرح من اليمين الى اليسار امرأة وطفلتهـا الصغيرة وقد بدا عليهمـا الفـزع وقلة الحيلة ـ (نرجو الرجوع الى لوحة بيكاسو) ـ تتوقف ضوضاء القصف) .

فانشو : ألم يصبك سوء يا ارنبتي الصغيرة ؟

صوت ليرا : احس بالم فظيع يا حبيبي ، انني سوف أموت .

فانشو : ستموتين ؟ ستموتين حقا ؟ . اتريدين ان اخطر العائلة؟

صوت ليرا : (متضايقة) أيـة عائلـة ؟

فانشو : الا يقولون هكذا في مثل هذه المناسبات ؟

صوت ليرا : لن تكون قوي الذاكرة طول حياتك . الا تعرف باننـا لـم تعـد لنـا عائلـة ؟

فانشو : آه ، صحيح . (يتفكر) وجوزيشو ؟

صوت ليرا : أين راح عقلك ؟. الم تعـد تذكـر بانه قد اغتيـــل رميـا بالرصاص في بورجوس ؟

فانشو : لا تستطيعيـن القول بان تلك كانت غلطتي . لقد اكدت عليك بانني لم اكـن ارغب في انجاب صبيان . يأتي يوم هكذا وتحصل حرب فتراهم مقتوليـن . لو انه كـان بنتا لكـان النظام مستتبا الان فـي المنـزل .

صوت ليرا : اهكذا ، تبحث دائمـا عن المآخذ . لم تكن تلكغلطتي.

فانشو : لا تغضبي يا بطتي الصغيرة ، لم أكـن اريـد اناؤلمك .

صوت ليرا : انت لا ترحمني ابدا .

فانشو : بالعكس ، بالعكس ، حين تخرجين من هنـا سانجبـك غلامـا اخـر لو اردت ذلك ، لابرهـن لـك على انني لا احمل تجاهك اي ضغينـة .

صوت ليرا : ولكنك لم تعد تستطيع .

فانشو : هوذا ، قولي لي أيضـا انني لست رجلا .

صوت ليرا : لا اقصد هـذا ، ولكنك لم تعـد قادرا علـــى المسالـــة .

فانشو : لم اعد قادرا ؟. أنت الوحيدة التي تقول ذلك ؟. . الا تذكريـن يوم السبت ؟

صوت ليرا : اي سبت ؟

فانشو : اي سبت تريدين ان يكون ؟ . ستقوليـن لـي الان انك قـد نسيـت .

صوت ليرا : ها انت تعود الى الزهو بنفسك من جديد .

فانشو : انا لا ازهو بنفسي . ما اقوله هو الحقيقةذاتها، ولكنـك لا تريدين الاعتراف .

صوت ليرا : انظـر مرة اخرى اذا ما كانوا قد اصابوا الشجرة.

(ينزل فانشو من فوق المائدة . يتجه نحو النافـذة . يفتحها . خلف النافذة يظهر ضابط . يتبادل الاثنان النظرات بحدة لمدة طويلة. يطأطيء فانشو رأسه وقد بدا عليه الخوف . يضحك الضابط بغيـــر ابتهاج بينما يدير باصبعه سلسلة من الاغلال . يغلق فانشو النـافذة مطأطيء الرأس . يعود وقد بدا عليه الرعب . يصعد فوق المائدة).

صوت ليرا : ماذا ؟

(تمر فترة)

صوت ليرا : ماذا ؟. ألا تزال قائمة ؟

فانشو : لا أعرف .

صوت ليرا : كيف ذلك ؟. كيف لا تعرف ؟

فانشو : لم أستطع رؤيتها .

صوت ليرا : (معولة) اهكذا ، أنا هنا عاجزة عن الخروج ،ولا أطلب منك سوى أن تذهب لرؤية اذا ما كانوا قد أصابوا الشجرة أم لا ، فلا تريد أن تفعل ذلك .

فانشو : لم أستطع .

صوت ليرا : (معولة) طيب ، كما تشاء .

« فانشو يهبط من فوق المائدة . يقترب من النافذة بخـــوف ويفتحها وهو مضطرب . يطل الى الخارج ثم يعود الى المائدة ويرتقي عليها . يشب على اطراف قدميه وقد بدأ عليه السرور » .

فانشو : انها تنهض واقفة .

صوت ليرا : (بفخر) لقد قلت ذلك . (تمر فترة . تعاودالحديث بحزن شديد) ولكن بالله عليك ساعدني قليلا . لا تتركني هكـــذا وحيـدة .

فانشو : وماذا تريدين مني أن أفعل ؟

صوت ليرا : هل تعييك الحيلة ؟ لشد ما تغيرت . من الواضح تماما أنك لم تعد تحبني .

فانشو : بالعكس يا أرنبتي الصغيرة . حاولي أن تعتدلي فيمكانك ومدي ذراعك الى أعلى ، وسأحاول من جانبي الامساك به .

« فانشو يشب بقدر استطاعته ويمد ذراعه ناحية الركام .وبينما يحاول الامساك بيد ليرا يدخل الضابط من جهة اليمين . الضـابط ينظر الى فانشو الذي يكون في هذه اللحظة مديرا له ظهره » .

فانشو : ابذلي جهدا . مدّيه أكثر قليلا وسأمسك به . اكثـــر قليلا . في هذا الاتجاه ، هنا .

« فانشو يرتكز على أطراف أصابع قدميه . يدفعه الضابط مـن الخلف فيجعله يسقط . يخرج الضابط على الفور من ناحية اليمين. يعتدل فانشو بصعوبة كبيرة وينظر تجاه اليمين . يظهر الضابط مـن النافذة . يضحك دون ابتهاج وهو يلعب بالقيود . فانشو ينظر بخوف

ناحية النافذة . في اللحظة التي تتلاقى فيها نظراتهما يكف الضابط عن الضحك وعن اللعب بالقيود . يتبادلون النظرات بمنتهى الجدية والصرامة . يطأطىء فانشو رأسه . يعاود الضابط الضحك بدون ابتهاج واللعب بالقيود . يختفي أخيرا . يرفع فانشو رأسه وينظر من اتجاه النافذة ، وقد بدا عليه الارتياح » .

صوت ليرا : آى ، آي ، لماذا تركتني ؟

فانشو : تزحلقت . هل أصبت بسوء يا أرنبتي الصغيرة ؟

صوت ليرا : سقطت الاحجار فوقي مرة أخرى . آى .

فانشو : اعذريني .

صوت ليرا : لا يمكن لي أن أعتمد عليك .

فانشو : بالعكس ، تستطيعين الاعتماد عليّ . سأقدم لك مفاجأة : هدبـــة .

« يخرج فانشو من جيبه خيطا وشيئا رخوا ينفخه بفمه . انها بالونة زرقاء مصنوعة من جلد امعاء الجاموس أو الخروف . يربطهـــا بخيط ويضع حجرا في نهاية الخيط .»

فانشو : (وقد استولى عليه السرور) القفي هذا الحجر الذي أرسله اليك .

« فانشو يقذف بالحجر الى الناحية الاخرى من الحائط » .

فانشو : هل استطعت التقاطه ؟

صوت ليرا : نعـم

فانشو : اسحبي الخيط .

« ليرا تنفذ ما يقوله لها فتتحرك البالونة حتى تتـــوازى فـوق رأسها »

فانشو : انظري في الهواء . هل ترينها ؟

« أزيز طائرات وأصوات قصف وضوضاء تصم الآذان . خـلال تلك اللحظة تمر المرأة وطفلتها الصغيرة من يمين المسرح الى يساره. تدفعان عجلة امامهما ، وفوق العجلة كيس كتب عليه : ديناميت.يبدو عليهما التوتر والعجز . تكف أصوات القصف » .

فانشو : يا أرنبتي الصغيرة ! (تمر فترة . يبدو عليه القلق) يا أرنبتي الصغيرة !

« البالونة تعلو وتهبط ».

فانشو : الم يحدث لك شيء ؟

« البالونة تعلو وتهبط ».

فانشو : قولي لي شيئا .

« صمت طويل »

فانشو : لا تريدين أن تقولي لي شيئا ؟ هل أنت غاضبة مني ؟ انها ليست غلطتي (فترة) لو كانت المسألة في يدي ... (فتـــرة) لست أنا الذي قوضت المنازل (وقد بدا عليه الرضى) وعلى أي حال فانهم لم يصيبوا الشجرة (على نحو مفاجىء) هل أنت غاضبة الـــى الابد هي (صمت) غضبا لا رجعة فيه ؟ (صمت) أهكذا تحبينني اذن. طيب . افعلي ما يحلو لك (يدير بصره في اصرار الى الاتجاه الاخـر وقد بدا عليه عدم الاهتمام يعقد ذراعيه) هل سمعتني جيدا ؟ افعلي ما بدا لك فأنا لا يهمني (تمر فترة) لا تأتي بعد ذلك وتقولي لي بأنني انا الذي بدأت وانني سيىء الطباع . هذه المرة المسألة واضحة : لـم افعل لك شيئا وانت التي لا تريدين الكلام . لقد لاحظتك وأنت تريدين العدوان : بدأت بالقول أنني لم أستطع يوم السبت اياه والآن ترفضين التحدث الىّ (فترة) الا تريدين ولا حتى تحريك البالونة ؟

(يستدير فانشو لينظر . البالونة تعلو وتهبط ببطء).

فانشو : آه السيدة لا تستطيع الكلام ، السيدة تعبانة ،السيدة تتنازل فقط بتحريك البالونة . حسن ، ليكن في علمك انني أستطيع أن أعاملك بالمثل (فترة) ولكن قولي لي شيئا ، قولي لي ما يحلو لك حتى ولو كان سيئا ، قولي لي فقط أي شيء (صمت طويل) حسن.

(من جديد يعود لياخذ سمت الغاضب . يدير بصره الى الناحية الاخرى عاقدا ذراعيه . يدخل الكاتب من جهة اليمين ومعه الصحفي الذي يمسك دائما بدفتر للملاحظات . يتخفى فانشو تحت المائـــدة وقد ادركه الفزع . الكاتب يتشممه ويتفحصه من جميع الجهات ويمنعه من الحركة » .

الكاتب : (للصحفي) هذا الشعب لكم هو شعب زاخر ومحزون. فلتنقل هذا عني ، كلا ، بل قل ان خصوبة هذا الشعب المحزون انمـا تزدهر على نحو طبيعي في غمار تلك الحر بالقاسية التي يستبيـح فيها الاخ دم اخيه . (وقد بدا عليه الرضى) لا بأس بذلك ، هيه؟ (مترددا) لا ، لا ، بل احذف تلك الجملة ، فهي جملة طنانة أكثر مما ينبغي . لا بد من العثور على شيء محدد وأكثر بساطة (يفكر)سوف يأتي ، سوف يأتي مع الوقت .

« فانشو لا يزال متمددا على الارض تحت المائدة وقد استولـى عليه الفزع . يخرج الكاتب والصحفي من ناحية اليسار . يسمع صوت الكاتب يتلاشى بعيدا ».

صوت الكاتب : يالها من رواية تلك التي سأؤلفها من هـــذا كله . يالها من رواية !. أو ربما كانت مسرحية ، بل وفيلما أيضـا. واي فيلم !...

صوت ليرا : مع من كنت تتحدث ؟

فانشو : السيدة قد انحلت عقدة لسانها ولم تعد خرساء .ولكن ليكن في علمك أنني أنا الآن الذي لم اعد أريد أن أتكلم .

صوت ليرا : (منتحبة) يا حبيبي انني أتألم جدا . أشعربالكثير من الوجع . انك لا تراف بحالي !

فانشو : (قلقا) ماذا حصل لك : هل أنت مريضة ؟

صوت ليرا : ألا ترى بأنني مغطاة بالاحجار وأنني لا أستطيـــع التحـرك ؟

فانشو : كنت قد كففت عن التفكير بذلك .

صوت ليرا : انت لا تفكر فيّ مطلقا .

فانشو : صحيح . كان ينبغي ان اعقد أنشوطة في منديلي .

صوت ليرا : ماذا كان يمكن أن تصير بدوني ؟ ان عقلك صغيـر جـــدا .

فانشو : (في غضب وكبرياء مزيف) تقولين لي ذلك دائمـا . طيب ، سأتزوج اذن من واحدة أخرى . وساعمل نزوات غرامية أيضا، أنت تعرفين لو رأيت كيف تنظر الخبازة لي عندما أذهب كـــل صباح لشراء الخبز !

صوت ليرا : المسألة هكذا اذن . تخونني الآن مع اول كلبـــة ممشطة الشعر تقابلك . لقد كنت أعلم تماما أنني لا يمكن أن أضـــع ثقتي فيـك .

فانشو : انها هي التي تنظر لي . أما أنا فأتجاهلها .

صوت ليرا : هذا ما تقوله . ولكنني كنت أتمنى أن أراك بعيني.

فانشو : أنا لم أفعل شيئا . أقسم لك .

صوت ليرا : مرة أخرى أيمانك المغلظة التي لا تأتي الا من أفـواه السكارى . ألم تقسم لي بأنك ستصطحبني في رحلة لقضاء شهـــر العسل .

فانشو : انني أفكر في ذلك دائما . حين تنتهي الحرب سـوف نسافر في رحلة . سآخذك الى باريس .

صوت ليرا : هكذا ، الى باريس . السيد يريد أن يروّح عـــن نفسه .

فانشو : هل ترين كيف أنك لا تتفقين معي في الراي أبدا .

صوت ليرا : (منتحبة) آى . الاحجار تنهال فوقي من جديد.

فانشو : (قلقا) هل آلمك ذلك ألما شديدا ؟ (ليرا تنتحب) آه! ان حكاية الحرب هذه حكاية مزعجة حقا .

صوت ليرا : افعل شيئا من أجلي .

فانشو : وماذا تريدين ؟

صوت ليرا : استدع طبيبا .

فانشو : اخلوا جميع الاطباء .

صوت ليرا : قل حالا انك لا تريد أن تصنع من اجلي شيئا .

فانشو : ولكنك لا تضعين في اعتبارك اننا فيحالة حرب .

صوت ليرا : نحن لم نرتكب اي اساءة في حق أحد .

فانشو : ليس لهذا أي اعتبار . وتقولين لي بعد ذلك انني أنا الذي أنسى كل شيء . لقد نسيت أنت بالفعل كيف تسير الامور الآن .

صوت ليرا : يمكن ان يعملوا لنا استثناء حيث اننا متقدمان في العمر .

فانشو : ماذا تعتقدين ؟ ان الحرب مسألة جدية . هكذا يظهر تماما انك لست متعلمة على الاطلاق .

صوت ليرا : هوذا ، والآن تنقلب الى قذفي بالاهانات . فلتقل على الاقل انك لا تحبني .

فانشو : (بحنان) يا بطتي الصغيرة ، انا لم أكن اقصد ايلامك.

صوت ليرا : لم تكن تقصد ان تؤلمني ولكنك آلمتني . لشدماتغيرت! فيما مضى كنت تسارع الى العناية بي ورعايتي في اقل الاشياء.

فانشو : والآن ايضا .

صوت ليرا : وحكاية التعليم تلك . أو تعتقد أنني ليست ليكبريائي أنا ايضا ؟

فانشو : ولكنني لم أقصد من وراء ذلك شيئا ، لقد قلتهكلاما في الهواء .

صوت ليرا : اسحبه .

فانشو : سحبته .

صوت ليرا : بنية صافية ؟

فانشو : نعم ، أحلف لك .

صوت ليرا : على ماذا ؟

فانشو : كالعادة .

صوت ليرا : حسن . اتمنى ألا تعاود ذلك ثانية .

« تمر فترة »

فانشو : ألا تستطيعين أن تعتذلي لمحاولة الخروج ؟

صوت ليرا : ولكنني حين أتحرك تبدأ الحجارة في الانهيال .

فانشو : ينبغي عمل شيء ما .

« أزيز طائرات وأصوات قصف . خلال هذا الوقت تمر الام والابنة من اليمين الى اليسار . تحمل الام بنادق صيد ، وتحمل الابنة ثلاثا منها . تفرقع بالونة ليرا . تتوقف اصوات القصف . »

صوت ليرا : (منتحبة) لقد قتلوا بالونتي .

فانشو : أي بهائم ! يطلقون النيران كيفما اتفق دون تصويب.

صوت ليرا : لقد فعلوا ذلك عمدا .

فانشو : كلا ، ولكنهم يطلقون دون تصويب ، دون ان يتنبهوا.

صوت ليرا : يا لهم من بهائم ! اولا يقوّضون لنا أركان البيت ، والآن ، حتى تكمل السعادة ، يقتلون لنا البالونة .

فانشو : انهم غير معقولين .

صوت ليرا : انظر اذا ما كانوا قد أصابوا الشجرة .

« فانشو ينزل من فوق المائدة ويتجه نحو النافذة التي يظهر خلفها الضابط . ينظر اليه فانشو . الضابط ينظر الى فانشو بجدية . يخفض فانشو رأسه وقد ادركه الفزع . الضابط يضحك دون ابتهاج بينما يلعب بالقيود باحد اصابعه . يختفي الضابط من وراء النافذة . يرفع فانشو رأسه . لا يرى أحدا . يخرج رأسه ببطء من النافذة . ينظر الى الشجرة . يبدو عليه الارتياح . ضحكات من خلفه ناحية اليمين . يلتفت الى ناحية اليمين . يظهر رأس الضابط الضاحك بخبث ثم يختفي على الفور . لم يعد فانشو يدري ، وقد استولى عليه الفزع ، الى أي اتجاه ينظر . ضحكات ناحية اليسار ، ثم ناحية اليمين ، ثم ناحية اليسار فناحية اليمين فناحية اليسار ثم ناحية اليمين ، وهكذا .. يكف فانشو عن الحركة مرعوبا . يدخل الضابط من ناحية اليمين . تبدو عليه الجدية وهيأة الذي يلاحظ . يبدو عليه كذلك أنه شديد الانشغال بفانشو . لا ينقطع عن تفحصه بينما يخرج من جيبه سندوتشا ملفوفا في أوراق صحف ويبدأ في قرض الخبز . يتخذ مكانه بالقرب من فانشو الذي يبتعد عنه .يعود الضابط الى الاقتراب منه وأخذ مكانه الى جانبه . يحاول فانشو الهروب بخوف . يظل الضابط ملتصقا به وهو يلاحظه ثم يزنقه في أحد الاركان . لم يعد فانشو يستطيع الحركة . عيناه مثبتتان في الارض . يسد عليه الضابط الطريق بابعاد المرفقين . كل ذلك وهو يلاحظه مستمرا في قرض خبزه بهدوء لحظة صمت طويلة .»

صوت ليرا : ولكن ماذا تفعل الآن ؟

« فانشو لا يستطيع الحركة . لا يرد »

صوت ليرا : أهكذا ، تتركني وحدي .

« الضابط يقرض ساندوتشه ، بتبلد ، دون أن يفك الحصار عن فانشو » .

صوت ليرا : (بحنان) تعال ، يابطتي الصغيرة .

« يكف الضابط عن الاكل ويأتي بحركة من وجهه كما لو كان يريد أن يضحك ولكن بلا صوت : يظهر جميع أسنانه ، يزيد فانشومن خفض رأسه وقد أدركه الخجل . ثم ان الضابط يكف عن الضحك ويأكل » .

صوت ليرا : هل أنت غاضب ؟ (فترة) طيب أعترف لك بانك صحيح قد أستطعت يوم السبت اياه (فترة) مبسوط ؟

« الضابط يكف عن الاكل ويأتي بحركة من وجهه كما لو كان يريد أن يضحك ولكن بلا صوت : يظهر جميع أسنانه ، يزيد فانشو من خفض رأسه وقد أدركه الخجل . ثم ان الضابط يكف عن الضحك ويأكل » .

صوت ليرا : أعرف جيدا أنك تلقى نجاحا مع النساء .. وخاصة مع الخبازة .

« نفس اللعبة تتكرر »

ثم يرتب الضابط في عناية ما تبقى من الساندوتش :يلفهفي ورق الجريدة وينظف فمه بدقة في أكمام سترة فانشو ، ثم يستدير ويترك المسرح من ناحية اليمين وقد اتخذ مظهرا عسكريا . يضحك فانشو بمنتهى السعادة ويخرج لسانه . يعود الى نفسه في الحال وقد تملكه الفزع . ينظر في كل الاتجاهات . يتأكد من أن احدا لايمكن أن يراه . يخرج لسانه ويضحك بمنتهى السعادة ويتسلق فوق المائدة .

فانشو : يا أرنبتي الصغيرة ، ان الشجرة لا تزال واقفة.

صوت ليرا : كل هذا الوقت لكي تراها ؟

فانشو : أحب أن أفعل الاشياء على أكمل وجه .

صوت ليرا : ألم تذهب لرؤية الخبازة بالمناسبة ؟

فانشو : ماذا تظنين بي؟ ونحن في قلب الحرب تعتقدين انني أسعى للبحث عن المغامرات ؟

« قصف . طائرات قنابل . خلال ذلك الوقت تمر المرأة وابنتها تدفعان أمامهما بعربة طفل ممتلئة حتى أعلاها بالخراطيش . يتوقف القصف . تخيم فترة صمت طويلة .»

فانشو : حبيبتي ليرا ؟

« لحظة صمت طويلة .»

صوت ليرا : ماذا ؟

فانشو : لماذا لم يكن لك عشاق ؟

صوت ليرا : عشاق « ضحكة قصيرة خافتة »

فانشو : نعم ، نعم ، عشاق « يضحك ، ثم يصمت »

صوت ليرا : أنا ؟ « ضحكة قصيرة خافتة .»

فانشو : نعم ، أنت بكل تاكيد .

صوت ليرا : لم يخطر على بالي .

فانشو : كان لا بد وأن يكون لك على الاقل عشيق واحد(يتفكر) كولونيل مثلا .

صوت ليرا : هكذا ، يكون لي عشيق كولونيل ، بهذه الطريقة تحبني اذن .

فانشو : لم تكوني موضع اهتمام الناس وحديثهم ابدا .

صوت ليرا : سبّتني أيضا فوق البيعة .

فانشو : كلا ، يا أرنبتي الصغيرة (تمر فترة . ثم بعناد) ولكن كل النساء المحترمات لهن عشاق . (تمر فترة) وأنت ما أردت قط مساعدتي : حين اعرّيك حتى يداعبك الاصدقاء تفضيبين على الدوام .

صوت ليرا : لانني أصاب بالزكام .

فانشو : تبحثين لنفسك عن أعذار لكل شيء .

صوت ليرا : انك لا تفكر الا في نفسك : أنت أناني .

فانشو : ولكنني أفعل هذا من أجلك (يبدو عليه الارتياح كما لو كان قد عثر على فكرة) فيما بعد يمكنك أن تكتبي مذكراتك .

صوت ليرا : آي (تمر فترة) بدأت الاحجار تنهال عليّ من جديد (تتوجع) لم أعد أستطيع أن أحرك أقدامي .

فانشو : ابذلي مجهودا .

صوت ليرا : (معولة) لقد اندفنت .

فانشو : بدأت الامور تتعقد بالفعل .

صوت ليرا : هذا كل ما يلهمك به الموقف . أنت لم تنشغل بأمري قط .

فانشو : بالعكس ، انني منزعج أشد الانزعاج . (على نحو مفاجيء) أتريدين أن أبكي ؟

صوت ليرا : اراك تدبر أمرا : تريد ان تلعب عليّ لعبة جديدة .

فانشو : كلا ، سوف ترين ، انني لو شئت لبكيت بكاء حقيقيا

صوت ليرا : أنا أعرفك . سواء لديك أن أموت أو أعيش.

فانشو : انت التي تقولين هذا . ولكن عندما تموتين سا... (يتفكر) سأنام معك ثلاث مرات متوالية ..

صوت ليرا : تزهو بنفسك من جديد .

فانشو : هل تراك قد نسيت بسرعة ؟

صوت ليرا : (تقطع عليه الحديث وقد بدا عليها الاعياء) نعم ، نعم : يوم السبت الشهير اياه ..

فانشو : (غاضبا) وتأتين بعد هذا لتقولي لي بأنني أنا الذي لم أكن لطيفا معك . (صوت انهيار جديد) .

صوت ليرا : آي .آي . (يزداد عويلها باطراد) سأموت هذه المرة بالفعل .

فانشو : هل أستدعي قسيسا ؟

صوت ليرا : أي قسيس ؟

فانشو : ألا يقال هذا ؟

صوت ليرا : لكم أنت ضعيف الذاكرة : هل نسيت أننا لم نعد مؤمنين ؟

فانشو : (وقد أدركه الفزع) من ؟ نحن ؟

صوت ليرا : أنت الذي اتخذت هذا القرار . ألم تعد تذكر ؟

فانشو : (الذي لا يتذكر شيئا) آه !

صوت ليرا : قلت اننا هكذا نصبح .. (تمر فترة . ثم تستانف الحديث ضاغطة على الكلمات الاخيرة) . أكثر تطورا .

فانشو : تطورا ؟ نحن ؟

صوت ليرا : بكل تاكيد .

فانشو : وها نحن الآن في موقف لا نحسد عليه : ستموتين وسوف تذهبين الى جهنم .

صوت ليرا : الى الابد ؟

فانشو : طبعا الى الابد . وأي عذاب ! سترين منه الوانا . وهو يعرف كيف يتقن صنع الاشياء .

صوت ليرا : هو من ؟

فانشو : ربنـا .

صوت ليرا : ربنا ؟

فانشو : نعم ، ربنا .

« ضحكة صغيرة موجزة .

يضحكان معا في جوقة واحدة بشيء من التهيب والحذر .

أصوات قصف . أزيز طائرات وانفجار قنابل . خلال هذا الوقت تمر المرأة وابنتها الصغيرة من يمين المسرح الى يساره . المرأة تحمل فوق ظهرها زكيبة مليئة بذخيرة ذات قيمة كبيرة . الصغيرة تعاونها فتفلح في ذلك أحيانا وتخفق أحيانا . يتوقف القصف » .

صوت ليرا : آي ، آي .

فانشو : ماذا حدث لك ؟

صوت ليرا : لن أستطيع الخروج من هنا بعد ذلك أبدا .

فانشو : لا تفقدي الامل .

صوت ليرا : الحجارة ترتفع حتى قامتي .

فانشو : لا تحملي هما . سترين ، سوف أجد طريقة لتخليصك.

صوت ليرا : ان حظنا سيء حقا .

فانشو : أنت السبب : فعندك جنون اسمه القراءة في دورةالمياه. تقضين فيها ساعات وساعات . وما يحدث لك الآن لا يدهشني مطلقا .

صوت ليرا : أنا السبب في كل شيء دائما .

فانشو : لا تأخذي المسألة هكذا ، فما أردت ايلامك .

« صمت »

صوت ليرا : لماذا دمروا البيت ؟

فانشو : لا بد أن أكرر لك دائما نفس الحكاية (مؤكدا على كل المقاطع) انهم يجربون قنابل متفجرة ومشعلة للحرائق . بعد هذا ستقولين بانني أنا الذي فقدت الذاكرة .

صوت ليرا : ألم يكن باستطاعتهم أن يجربوها في مكان آخر ؟

فانشو : أتعتقدين أن الامور بهذه البساطة ؟. كان لا بد أن يجربوها على احدى المدن .

صوت ليرا : لماذا ؟

فانشو : ستقولين مرة أخرى أنني أسخر منك ، ولكن ها أنت ترين بانك لا تملكين ابسط حظ من التعليم . لماذا ؟ لماذا ؟.. لماذا تريدين أن يكون ذلك اذا لم يكن للتجربة .

صوت ليرا : وبعد هذا ؟

فانشو : وبعد هذا ؟ وبعد هذا ؟ أنت تسوقين الغباء : لو أن القنبلة قتلت كثيرا من الناس فهي صالحة وسيصنعون منها المزيد، أما اذا لم تقتل أحدا فانها حينذاك لا تساوي شيئا وسيكفون عن صناعتها .

صوت ليرا : آه !

فانشو : لا بد أن أشرح لك كل شيء .

صوت ليرا : (غاضبة) أنا لا أفهم لماذا تصطنع هذه اللهجة في الكلام : فانا أعلم انني لم أدرس قدر ما درست أنت .

فانشو : (وقد استخفه الغرور) أنا أعرف كل شيء ، هيه ؟.

ومن الممكن القول بانني قد ترددت على الكليات (تمر فترة . يبدو عليه الانبساط . تأتيه فكرة) من الممكن أن يعتبرني الناس برفيسور ، اليس كذلك ؟

صوت ليرا : (بضيق وارتياب) نعم ، بكل تأكيد .

فانشو : هل تعتقدين ذلك حقا ؟

صوت ليرا : (بضيق وارتياب) نعم .

فانشو : وهكذا يمكن أن يعتبروك زوجة بروفيسور . وحين يرانا الناس في الشارع يقولون : « انظروا البرفيسور وزوجته». كما نستطيع أن نفخم أنفسنا ويكون لنا بطاقات زيارة ونحضر المؤتمرات. لا ينقصني سوى المظلة . ثم ان لك حظا وافرا من التعليم ، بعد كل ما قرأته في دورة المياه !

صوت ليرا : ستبدأ من جديد ؟

فانشو : ألست موافقة ؟

صوت ليرا : نحن ؟.. نكون بروفيسورات ...!

فانشو : أنت لا توافقين على أفكاري ابدا . كان الامر كذلك دائما . لو أنك عاودت هذا لكان بها ، وسوف أمضي من هنا للابد. (وقد بدا عليه التوتر) لا أريد لك أن تعيشي مع رجل يقول حماقات. وداعا !

« يقعي فانشو ويحدث ضوضاء تحت المائدة ليوحي بانه يذهب ».

صوت ليرا : يا حبيبي! هل تتركني وحدي؟

« ليرا تعول : لا يتحرك فانشو . يظل مقعيا دائما »

صوت ليرا : يا حبيبي ، تعال !

« فترة صمت طويلة . فانشو لا يتحرك ويظل مقعيا دائما »

صوت ليرا : ولكن ذلك كان من قبيل المداعبة (تمضي فترة)وانت تعرف تماما أنني شديدة الاعجاب بك . (وقفة طويلة) يمكنك أن تكون بروفيسورا رائعا . (تمضي فترة) حين تتكلم يبدو وكأنك قبطان بل وحتى عالم آثريات .

« صمت طويل . يبدو على فانشو الزهو » .

صوت ليرا : يا حبيبي ! (فترة) أتتركني وحدي ؟ (فترة) تعال !

« وقفة طويلة . تتكرر نفس اللعبة ».

صوت ليرا : آي ، آي . (تبكي) الحجارة بدأت تنهال من جديد .

فانشو : (ينهض وقد اعتراه القلق) ماذا حدث لك يا ملاكي ، هل أصبت بسوء .

صوت ليرا : انني سوف أندثر تماما بينما تختار أنت هذه اللحظة بالذات لكي تذهب . أنك بدون قلب .

فانشو : ولكنك أنت التي بدأت الخصام .

صوت ليرا : كان هذا من قبيل المزاح.

فانشو : احلفي انك لن تفعلي ذلك مرة أخرى .

صوت ليرا : أحلف .

فانشو : بماذا ؟

صوت ليرا : كالمعتاد .

فانشو : بنية صافية ؟

صوت ليرا : بنية صافية

فانشو : حسن . أتمنى ألا تعاودي ذلك ثانية .

« أصوات قصف . ضوضاء قنابل وطائرات . خلال هذا الوقت تعبر المرأة وابنتها من يمين المسرح الى يساره تسحبان عربة صغيرة ذات ذراع ممتلئة بالبنادق القديمة . يتوقف القصف » .

صوت ليرا : آي ، آي . لم أعد أستطيع أن احرك ذراعي.

فانشو : لا تحملي هما ، سوف أخلصك .

صوت ليرا : ولكن الحجارة تصل حتى عنقي .

فانشو : لا تحملي هما ، سترين أنني سأعثر على طريقة ما.

صوت ليرا : سوف أموت .

فانشو : هل تريدين أن أستدعي الموثق من أجل الوصية ؟

صوت ليرا : أي وصية ؟

فانشو : ألا يقال هذا ؟

صوت ليرا : ستبدأ من جديد ؟

فانشو : كان لا بد أن تكتبي واحدة حتى أطلع الجيران عليها.

صوت ليرا : أنت لا تشغل نفسك الا بالمفاجآت والتصرفات المدهشة .

فانشو : ولكنني لا أفعل هذا الا من أجلك . كل السيدات العظيمات يكتبن وصاياهن . وأنت أيضا كان ينبغي عليك أن تعدي وصيتك وكلماتك الاخيرة .

صوت ليرا : أي كلمات أخيرة ؟

فانشو : تلك التي يقولها الانسان قبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة. هل تريدين أن القنك بعض الافكار ... (يتفكر ، ثم يقول باستعجال) عن الحياة الدنيا أو عن الانسانية ..

صوت ليرا : (يقطع عليه الحديث) كفى ، ما تقوله ليس الا حماقات .

فانشو : تسمين ذلك حماقات ؟. أنت تافهة الى أبعد الحدود!

صوت ليرا : (معولة) تعود الى قذفي بالاهانات والشتائم ؟

فانشو : كلا ، يا أرنبتي الصغيرة .

صوت ليرا : لم أعد أستطيع التحرك (معولة) ولكن متى ستنتهي تلك الحرب ؟

فانشو : هكذا ، السيدة تريد للحرب أن تنتهي عندما تشاء.

صوت ليرا : (نائحة) ألا يستطيعون ايقافها ؟

فانشو : طبعا لا . لقد صرح الجنرال بانه لن يتوقف قبل أن يحتل كل مكان .

صوت ليرا : كل مكان .

فانشو : بالطبع ، كل مكان .

صوت ليرا : انه يبالغ !

فانشو : القواد لا يقومون باعمال ناقصة : كل شيء أو لا شيء.

صوت ليرا : والناس ؟

فانشو : الناس لا يقدرون على خوض الحرب . ثم ان الجنرال مدعم تدعيما كبيرا .

صوت ليرا : اذن فالمسألة لم تعد لعبا !

فانشو : وماذا يهم الجنرال في ذلك !

صوت ليرا : لم أعد أستطيع أن أتحرك . لو أن الحجارة انهالت علي من جديد فسوف أندثر تماما .

فانشو : يا للازعاج . ولا يهمك . سوف ترين ، سينتهي القصف.

صوت ليرا : حقا ؟

فانشو : حقا .

صوت ليرا : وكيف عرفت ذلك ؟

فانشو : أتشكين في كلامي ؟

صوت ليرا : لا (بارتياب) وكيف تريدني أن أشك في كلامك؟

(تنفجر ثلاث قنابل . ضوضاء مفزعة).

صوت ليرا : (باكية بدموع حارة) يا حبيبي ، لقد اندثرت تماما ، تعال فخلصني .

(يقترب فانشو ويصعد في عناء شديد فوق الانقاض . بكاء ليرا).

صوت ليرا : هذه المرة سوف اموت حقيقة .

فانشو : لا تفقدي هدوء اعصابك . انني قادم .

(فانشو يتقدم بعناء فوق الانقاض . يبلغ المكان الذي توجد فيه ليرا) .

فانشو : يا أرنبتي الصغيرة ، هانذا . اعطني يدك .

صوت ليرا : الا ترى أنني مغطاة بالحجارة تماما .

فانشو : ساخلصك في الحال . انتظري ، ساخرجك من هنا.

(لحظة قصف طويلة . تنهال احجار جديدة . فانشو يندفن تحت الركام هو الآخر . عندما ستنتهي تلك اللحظة الطويلة من القصف تعبر المرأة من يمين المسرح الى يساره . لا ترافقها الطفلة الصغيرة هذه المرة . تحمل فوق كتفها نعشا صغيرا . يبدو عليها القلق مع قلة الحيلة . ـ نرجو الرجوع الى لوحة بيكاسو ـ تختفي ناحية اليسار .

في أعماق المسرح تسمح الجدران المتهدمة برؤية شجرة الحرية. انتهى القصف : لم يبق على المسرح أي حطام . صمت طويل . عند الموضع الذي اختفى منه فانشو وليرا بالضبط تصعد ببطء بالونتان ملونتان وترتفعان الى السماء . يدخل الضابط الذي يطلق الرصاص من بندقيته ـ الرشاشة على البالونتين دون أن يفلح في اصابتهما. البالونتان تختفيان في الفضاء . الضابط يواصل اطلاق النيران. تسمع من عل ضحكات سعيدة تنطلق من فانشو وليرا . ينظر الضابط في كل الاتجاهات وقد تملكه الفزع ثم يخرج من ناحية اليمين مهرولا.

يدخل الكاتب . يصعد فوق المائدة . يتفحص المكان الذي كان يوجد به فانشو وليرا . يبدو عليه الرضى . يهبط من فوق المائدة. يخرج من ناحية اليسار وهو يعدو تقريبا ، وقد استخفه الفرح ، قائلا :

صوت الكاتب : لسوف أؤلف من كل هذا رواية مدهشة .رواية عظيمة : وأي رواية !...

(يتلاشى صوته بعيدا . تمر فترة . عن قرب يسمع صوت أحذية الجنود السائرين . وفي عمق المسرح ، تغني مجموعة من الرجال ، بخفوت : « جيرينيكاكو اربولا Guerénikako Arbola يتزايد عدد افراد المجموعة شيئا فشيئا وتزداد قوة اصواتهم شيئا فشيئا حتى يصبح المغنون جمعا غفيرا من الناس ينشدون : « جيرنيكاكو أربولا » وحتى يغطوا تماما على صوت أحذية الجنود ، بينما ينزل الستار .

باريس ١٩٥٩ ترجمة وحيد النقاش

صدر حديثا

من اين يجيئ الحزن ؟

المجموعة الشعرية الاولى

للشاعر علوي الهاشمي

« البحرين »

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات

دار العودة - بيروت